

بسم الله الرحمن الرحيم

برنامج فقه الأقليات

محاضرة الإطار

(الشريعة القرآنية)

د. طه جابر العلواني

الشرع: نهج الطريق الواضح. يقال: شرعت له طريقا.

والشرع: مصدر. ثم جعل اسما للطريق النهج، فقيل له: شَرَعْتُ، وشَرَعْتُ، وشريعة.

واستعير ذلك للطريقة الإلهية. قال تعالى: [لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا] (المائدة:48)، فذلك إشارة إلى أمرين: أحدهما: مَا سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْ طَرِيقٍ يَتَحَرَّاهُ مِمَّا يَعُودُ إِلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَعِمَارَةِ الْبِلَادِ. وذلك المشار إليه بقوله تعالى: [وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا] (الزخرف:32).

الثاني: مَا قِيضَ اللَّهُ مِنَ الدِّينِ وَأَمْرُهُ بِهِ لِيَتَحَرَّاهُ اخْتِيَارًا مِمَّا تَخْتَلَفُ فِيهِ الشَّرَائِعُ، ويعترضه النسخ، ودل عليه قوله تعالى: [ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا] (الجمانية:18).

نقل عن ابن عباس أنه قال: الشرعة ما ورد به القرآن، والمنهاج ما وردت به السنة.

وقوله تعالى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ] (الشورى:13)، إشارة إلى الأصول التي تتساوى فيها الملل فلا يصح عليها النسخ؛ كمعرفة الله تعالى، وأصول العقيدة مما دل عليه قوله تعالى: [وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ] (النساء:136).

وقال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث إنّ من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة روى وتطهر.¹

والشريعة والتشريع، وكذلك الشريعة والشرع، كلها راجعة إلى أصل واحد، هو مادة "شرع". ومعنى "شرع": وضع الأحكام وحددها، فهو بمعنى سنّ، فالذي يضع الأحكام للناس، ويحدّد لهم ما يفعلون وما لا يفعلون، ويحدّد لهم كيف يفعلون...، يقال عنه: شرع يشرع... والأحكام التي يضعها تسمى شرعاً وشريعة. وتسمى كذلك شرعة وعلى هذا: فالشريعة والشريعة والشرع بمعنى واحد.

وقال الإمام الطبري: «والشريعة: الشريعة بعينها، تجمع الشريعة شرعاً، والشريعة شرائع، ولو جمعت الشريعة شرائع كان صواباً، لأنّ معناها ومعنى الشريعة واحد»⁽²⁾.

وقال القرطبي: «والشريعة والشريعة: الطريقة التي يتوصل بها إلى النجاة. والشريعة في اللغة: الطريق الذي يتوصل منه إلى الماء. والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين، وقد شرع لهم يشرع: أي سن. والشارع: الطريق الأعظم»⁽³⁾.

أما مفهوم "الشريعة"؛ من حيث مضامينها ومجالات أحكامها: فمن العلماء من يجعله شاملاً لكل ما أنزله الله لعباده، أي لكل ما وضعه لهم وكلفهم به وأرشدهم إليه، من معتقدات وعبادات وآداب... فالشريعة عندهم مرادفة أو مطابقة، للدين والملة، فالدين والملة والشريعة، في هذا المفهوم الموسّع، شيء واحد.

¹ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني. مادة شرع

² تفسير الطبري، (10 / 384)، عند تفسير الآية: (لكل جعلنا منكم شرعة....).

³ الجامع لأحكام القرآن، عند قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعاً ومنهاجاً)

ومما يستدل به على هذا المعنى قوله تعالى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ]
(الشورى: 13) ⁴.

وأهم ما هو مشترك بين هؤلاء الرسل وغيرهم، هو توحيد الله وعبادته وطاعته، فهذا هو ما
شرعه الله للعباد، وهذا هو شرعه وشريعته، فكل ما شرعه فهو شرع وشريعة.

وبهذا المعنى ألف أبو بكر الأجرى كتابه (الشريعة)، الذي يتناول فيه . بلا تمييز . قضايا
عقدية، وقضايا فقهية، وقضايا أصولية. ومن أبواب الكتاب . على سبيل المثال . باب: "
التحذير من مذاهب أقوام يكذبون بشرائع مما يجب على المسلمين التصديق بها " ¹ ثم ساق
بعض الآثار تحذر ممن سيظهر فيهم التكذيب بالرجم، والدجال، والحوض، والشفاعة،
وعذاب القبر، وخروج المؤمنين من النار، ممن سيدخلونها.

فهذه الأمور كلها اعتبرها " شرائع " يجب الإيمان بها... ؛

إلا أن استعمال " الشريعة " بمعنى الأحكام العملية دون الاعتقادات القلبية، هو الغالب
لدى العلماء ولدى الفقهاء خاصة، ومن هنا شاع التقابل بين العقيدة والشريعة، حيث
يوصف الإسلام بأنه عقيدة وشريعة، بمعنى أن الشريعة غير العقيدة.

وهذا التمييز بين العقيدة والشريعة، بإخراج الأولى من الثانية، يجد سندًا له في قوله تعالى:
[لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا] (المائدة: 48)، فهو يدل على التغير والاختلاف بين
الشرائع المنزلة، وهذا لا يكون إلا في الأحكام العملية، أما العقيدة فهي ثابتة مع الثوابت
المشتركة بين الشرائع، بل هي الركن الأعظم في تلك الثوابت. وفي كل ما أوحى إلى الرسل،
قال تعالى: [وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ؛ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ

انظر الكليات للريسوني⁴.

هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكذِّبِينَ] (النحل:36).

وفي قوله تعالى: [ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ] (الجاثية:18)، قال قتادة: "والشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي"⁽⁵⁾

وسواء أكان هذا هو المعنى الأصلي للشريعة، أو كان استعمالاً اصطلاحياً خاصاً، إلى
جانب المعنى الأوسع، فإنه أصبح هو المعنى السائد والمتبادر إلى الأذهان عند إطلاق لفظ
الشريعة والشرع.

وقال بعض العلماء: "والشرع والشريعة: كل فعل أو ترك مخصوص من نبي من الأنبياء، صريحاً
أو دلالة، فإطلاقه على الأصول الكلية مجاز، وإن كان شائعاً، بخلاف الملة، فإن إطلاقها
على الفروع مجاز، وتطلق على الأصول حقيقة، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه وغير ذلك.
ولهذا لا تتبدل بالنسخ، ولا يختلف فيها الأنبياء"⁽⁶⁾.

هذا وأهم ما اقتصت به الرسالة الخاتمة: العالمية، والعموم والشمول، وختم النبوة وإيكال
الحاكمية للكتاب الكريم بقراءة بشرية وفهم بشري وشريعة تخفيف ورحمة، فإذا هي رسالة
خاتمة تقوم على ختم النبوة، وحاكمية الكتاب وشريعة التخفيف والرحمة، إضافة إلى عالمية
الخطاب وعمومه وشموله،

وبذلك استطاعت الرسالة الخاتمة أن تكون خطاباً للبشرية كافة، خطاباً عالمياً يظهر فيه الدين
الذي جاء به نوح وإبراهيم وسائر الأنبياء والمرسلين من بعدهم، كما ظهر في صياغتها
الأخيرة الخاتمة على يدي خاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

5 جامع البيان، للطبري، عند تفسير الآية 18 من سورة الجاثية

6 الكليات للكفوي، ص (524).

7 الكليات الأساسية للريسون (نسخة إلكترونية)

فهي رسالة من يعلم من خلق جل شأنه [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] (الملك:14)، وعلم أن فيكم ضعفا، [وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا] (النساء:28)، [سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ] (الأنبياء:37).

فكل خصائص الإنسان وفطرته وطاقاته ملاحظة في هذه الشريعة الخاتمة، ولذلك جاء فيها: [وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ] (الحج:78)، وجاء فيها: [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] (النساء:26)، [وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ] (النساء:27).

ثم جاءت خصائص هذه الشريعة في إطار التوضيح لموسى ولقومه: أن التخفيف والرحمة اللذين كان بنو إسرائيل يتوقون إليهما بقيادة سيدنا موسى، ويسألون الله تعالى أن يمن عليهم بهما، هاتان الخاصيتان وخصائص أخرى كثيرة غيرهما؛ إنما هي خواص مدخرة للشريعة الخاتمة وحملتها والذين سيؤمنون بها ويتبعون حاملها _ صلى الله عليه وآله وسلم _ ولذلك جاءت هذه الخصائص في معرض ميقات الجبل الذي حدده الله لموسى وللسبعين الذين اختارهم لمرافقته في ميقات ربه، وفي هذا الإطار أعلمهم أن تطلعهم إلى العالمية أو إلى الهيمنة على البشرية لن يحدث إلا لحملة الشريعة التي تحمل هذه الخصائص، إذ هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يحملوا الخطاب العالمي وينادون الناس كافة به ويدعونهم إلى اتباعه فيتبعونه، [وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِثَابِي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ] (الأعراف:155/156)، [قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الأعراف:158].

إذا فخصائص شريعة القرآن؛ أهما شريعة تحل الطيبات وتحرم الخبائث وتضع عن البشرية الإصر والأغلال التي كانت عليها، فالذين يؤمنون بها ويمسكون بالكتاب الذي يحملها، ويؤمنون بالنبي الذي جاء بها، ويعزرونه ويوقرونه؛ هم الذين يستطيعون أن يخاطبوا البشرية كلها بخطاب عالمي، أما غيرهم فقد حرم الله -تعالى- عليهم كثير مما كان قد أحل لهم بظلمهم، [فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا] (النساء:160)، وقبل ذلك [كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ] (آل عمران:93)، لأنَّ الشريعة الإلهية لا تضع إصرًا وأغلالًا بل هداية وبشارة وتيسيرا وترشيذا لحركة الإنسان في هذا الكون وإعانتة على الوفاء بالعهد الإلهي، [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا] (الأعراف:172)، والقيام بحق الاستخلاف، [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً] (البقرة:30)، والوفاء بالأمانة ليخرج الإنسان من دائرة الاتصاف بالظلم والجهالة، [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] (الأحزاب:72)، والنجاح في اختبار الابتلاء، [لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ] (الملك:2)، والفوز بالجنة والنجاة من النار، [فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ] (الشورى:7).

وحين تفقد هذه الخصائص وتصبح الشريعة حرجا على أهلها، عسيرة التطبيق، لا تراعى فطرة الإنسان ولا خصائصه، وتكلف بما لا يطاق، فإنها لا يمكن أن تقبل ولن يستطيع الإنسان إتباعها والالتزام به.

أن فقهاء الهند وعلماءه قادرون على تأسيس وعي فقهيّ وشرعيّ قائم على شريعة القرآن التي تحمل هذه الخصائص، التي تمكنهم من معالجة مشكلات المسلمين في الهند وغير المسلمين كذلك. فهي تمكنهم من معالجة مشكلات أمة الهند كلها بجميع طوائفها وأديانها ومللها ونحلها، وتجمع كلمتهم على العدل والتزكية وال عمران، وتألّف القلوب، وإفراد الخالق جل شأنه بالإلهية والربوبية، وتحل للناس الطيبات وتحرم عليهم الخبائث وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فتطمئن المجتمعات التي تضم أكثريات غير مسلمة إلى أن المسلمين بينهم يحملون إليهم الهدى والنور والذكر الحكيم، ويتنون لهم شرائع التخفيف والرحمة وجمع الكلمة ونبد الغلو والتطرف ورفع الحرج والأخذ بالأخف والأيسر وما إلى ذلك.

من هنا فإن إدراك الفقيه لخصائص التشريع القرآنيّ وتعمقه في معرفة شريعة القرآن هو الضمان الأكيد لجعله فقيها قادرا على توجيه الأقلية الوجهة التي تجعلها حيثما تكون نقطة جذب، وقطبا تستمد الأكثرية منها الهداية والنور، وبالتالي فإن الأكثرية سوف تحرص آنذاك على تعزيز وجود الأقلية، وحبها والارتياح لكل ما تراه من نمو ونماء وانتشار فيها، وسوف تمنعها مما تمنع منه أنفسها وتحمي وجودها، وفقه الأقلية فقه نريد أن نبنيه على فقه القرآن وشريعته لا على الضرورات والمخارج والحيل، إنّه فقه من يريد أن من يريد يكونوا نماذج لغيرهم إذا نظر الناس إليهم أعجبوا بهم وتساءلوا عنهم وعماء وراءهم مما جعلهم متميزين.

وحين يقال لهم: إن هؤلاء مسلمون، علمهم الإسلام هذا يحبون الإسلام ويدركون عظمتهم، ويقبلون على الانتماء إليه وتبنيه. والله أعلم

المصطلحات والمفاهيم التي سيجري تداولها في المقرر

1. مفهوم الدين:

كلمة "دين" استعملت في لغات مختلفة هي ومشتقاتها للإشارة إلى السلطة، سلطة القانون والتشريع، وسلطة الأمة أو الحاكم، وسلطة القاضي.

وفي الاستعمال الإلهي في القرآن الكريم نجد هذه الكلمة قد وردت في سياقات عديدة، ومعانٍ متنوّعة، لعلّ أهمها وجوه خمسة، وهي الوجوه التي كانت معروفة بين القرنين الثاني والثالث للهجرة، ولخصها مقاتل بن سليمان البلخي بقوله " تفسير الدين على خمسة وجوه: فوجه منها، الدين: يعني: التوحيد، فذلك قوله في آل عمران: " إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران:19] يقول: إن التوحيد عند الله الإسلام؛ كقوله في الزمر: [فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ]، يعني: التوحيد. والوجه الثاني: الدين، يعني: : الحساب، فذلك قوله تعالى: في فاتحة الكتاب: [مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ].(الفاتحة:4) يعني: : الحساب كقوله في الصفات: [هَذَا يَوْمُ الدِّينِ] (الصفات:20) يعني: : يوم الحساب؛ كقوله تعالى في المطففين [الَّذِينَ يُكذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ] (المطففين:11) يعني: : يوم الحساب. وقال عز وجل في الصفات: [أَتَيْنَا لَمَدِينُونَ](الصفات:53) يقول: إنا لمحاسبون. وقال سبحانه وتعالى في الواقعة: [فَلَوْلَا إِنَّ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ] (الواقعة:86) يعني: غير محاسبين. والوجه الثالث: الدين، يعني: الحكم؛ فذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة النور: [الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ](النور:2) يعني: : حكم الله الذي حكم به على الزاني؛ كقوله في يوسف " مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ " يعني: : حكم الملك وقضائه.

والوجه الرابع: الدين، يعني: : الذي يدين الله به العباد، فذلك قوله عز وجل: في براءة: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ](براءة:33)، يعني: : الإسلام " لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ " يعني: : ليعلو الإسلام كل دين يدان به الله بغير دين الإسلام " وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ".

وقال أيضًا في الفتح: " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ [الفتح:28] يعني: كل دين يدان به الله غير الإسلام.

والوجه الخامس: دين، يعني: ملة، فذلك قوله تعالى: [مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا]. (النحل:133) وفي سنة 204 هـ فسر الفراء كلمة دين في كتابه (معاني القرآن) بشريعة ومنهاج، كذلك نبه إلي معنى الجزاء على الالتزام بتلك الشريعة والمنهاج.

وقد عرف الراجب الأصفهاني كلمة دين فقال: دين: يقال دنت الرجل أخذت منه ديناً، وأدنته جعلته دائناً، وذلك بأن تعطيه ديناً. وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في سورة البقرة، قال تعالى: [إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...]، (البقرة:282) كما ورد أيضًا في سورة النساء [من بعد وصية يوصى بها أو دين]. (النساء:12)

2. الحاكم والحكم وأقسامه:

فسر جمهرة الأصوليين الحكم بأنه: الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير. أما الاقتضاء _ فإنه يتناول اقتضاء الوجود، واقتضاء العدم، إما مع الجزم، أو مع جواز الترك - : فيتناول " الواجب "، و " المحظور "، و " المندوب "، و " المكروه " .
وأما التخيير _ فهو الإباحة⁸.

وللحكم الشرعيّ تقسيمات عديدة، خلافتهم فيها يغلب أن يكون لفظيًا، ويمكن الرجوع إليها وإلي تعريفات أقسامها في كتب كثيرة، منها: المحصول للإمام الرازي، وتعليقاتنا عليه والإحكام للآمدي، والمستصفي للغزالي.

والحاكم مشتق من الحكم، فهو المخاطب بالحكم، وقد يطلق علي القاضي أنّه حاكم؛ ويراد بذلك أنّه المنفذ للحكم المنبثق عن الخطاب.

⁸ -نظر المحصول للرازي وتعليقاتنا عليه ج 1، ص 89 .

والحكم الشرعيّ مصدره المنشئ، والكاشف، هو القرآن الكريم، ومصدره التطبيقيّ والعمليّ والتأويلي هو السنّة النبويّة المطهرة، وما ذكره الأصوليون مما سميّ تجوزاً " مصادر " أرادوا به أنّها أدوات منهاجيّة، تساعد المجتهد سواء أكان قاضياً، أو غيره في عمليّات الاستنباط والوصول إلى الحكم.

3. المكلف والتكليف:

المكلف هو: الإنسان الذي توافرت فيه شروط التكليف، واتصف بالأهليّة للقيام بما كلف به.

والتكليف هو: ما يحمله خطاب التكليف من حكم يكلف به ذلك الإنسان الذي أطلقنا عليه لقب المكلف.

4. الفقه الأكبر:

الفقه الأكبر هو: فقه الدين كله، عقيدةً، وشرعيّةً، ومنهاجاً، وهو المراد بقوله تعالى: [لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ]. (التوبة: 122)

والفقه الأكبر هو فقه الدين قبل أن تحدّد المصطلحات وتأخذ أشكالها المنطقيّة التي عرفت فيما بعد، بحيث صار الفقه يطلق على " معرفة الأحكام الجزئيّة، المكتسبة من الأدلة التفصيليّة "

5. الوحي:

الوحي سبيل اختاره الله تبارك وتعالى لتوصيل رسالاته إلي من اصطفاهم لحملها، والمخاطبة بها، من ملائكة، وأنبياء من البشر، وبما أن ما يوحيه الله تعالى لأتباعه ورسوله يتم بإحدى طرق ثلاث، هي التي حددها بقوله تعالى: [وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] (الشورى: 51) فقد اعتبرت الآية أن الوحي مطلقا هو: الإشارة السريعة، أو الكلمة التي تخفى على كل من لم يقصد بها حتى لو كان حاضرا، أو شاهدا وحيها.

ولذلك فسر الوحي لغة بأنه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، وبذلك يشتمل على التوجيه الغريزي؛ كالوحي إلى النحل، وعلي الخواطر التي يلقيها الله في روع الإنسان السليم القلب، النقي الفطرة. ويقابلها ما يلقيه الشيطان من وسوسة ونحوها. وقد وردت في القرآن بتلك المعاني، فجاءت بمعنى " أشار، مثل قوله تعالى: [فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا] (مريم: 11).

والوحي الذي نقصده في مجال التشريع؛ أنه إعلام من الله تعالى لمن اصطفاه بحكم شرعي ونحوه، مع اليقين من ذلك النبي بأن هذا الإعلام من الله تعالى بنوع من الأنواع الثلاثة المذكورة في قوله في سورة الشورى: [وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ...] (الشورى: 51)

المذاهب الفقهيّة:

المذاهب الفقهيّة يراد بها مذاهب الفقهاء المجتهدين الأربعة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي. وهي المذاهب المعمول بها عند جمهور المسلمين إلى اليوم والتي كتب لها البقاء والتغلب على سواها من مذاهب أهل السنّة. كمذهب سفيان الثوري بالكوفة، والحسن

البصريّ بالبصرة، والأوزاعي بالشام والأندلس وغيرها، وابن جرير وأبي ثور ببغداد، وداود الظاهريّ في كثير من البلدان وغيرها من مذاهب فقهاء الأمصار⁹.

6. الشريعة:

الشريعة هي: الطريقة والسنة. وفسرها بعض العلماء بأنها: طريق إلى ما هو سبب النجاة في الحياة الأبدية، والشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة، ومنهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق.

والدين في الحقيقة واحد، وفي الشريعة متعدد فلا يختلف الأنبياء في أركان العقيدة ومعالمها، فهي ثابتة لا تتغير وواحدة لا تتعدد، تشتمل على الإيمان بالله الواحد وجميع أنبيائه ورسوله من ذكر في القرآن ومن لم يذكر، وبملائكته وعالم غيبه وبكتبه وباليوم الآخر وبأنه جل شأنه خلق كل شي فقدره تقديرا، لم يخلق شيئا عبثا ولا سدا أمّا من حيث الشرائع فتختلف من مله إلى مله وأمه إلى أمّة، لا في أصولها ولا في كونها ما شرع الله من الدين؛ بل في فروعها النسبيّة المتغيرة، ولقد نقل الطبري كثيرا من الآثار في التأيد علي هذا المعنى وتبناه واستدل له على سبيل الاستئناس والتأييد بقوله تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة). فانظر هذه الآثار والنقول في تفسير الطبري¹⁰.

⁹-انظر " نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية" للعلامة أحمد تيمور باشا ، ص 47 .
¹⁰-انظر "تفسير الطبري" ج 10 ، طبعة دار المعرف ، ص 383_390 .

7. مفهوم المنهاج:

«نَهَجْ نَهَجًا» تعني اتخذ منهاجًا أو طريقًا للوصول إلى غاية، وقوله تعالى: [لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا] (المائدة:48) فيه ربط وثيق بين «الشريعة والمنهاج» فلكي تسود الشريعة، وتنبثق عنها سائر نظم الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لا بد من «منهاج» يُوَدِّي إلى ذلك -كله- ويجعله حقيقة واقعة. ولذلك ذهب الكثيرون من العلماء إلى أن «رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان قائمًا بدور المنهاج والمنهجية» في حياته. وأن هذه المهمة قد انتقلت إلى ما تركه لأمته من سيرة وأفعال وتصرفات وأقوال موضحة مبينة لعل ومقاصد، وحكم تلك السيرة والسنن والأفعال والتصرفات النبوية التي يتضح للناس بها منهج النبي في اتباع القرآن وتأويل آياته وتفعيلها في الواقع بحيث يتأسى المؤمنون به في اتباع القرآن وتطبيق آياته. فلا غرابة أن يفسر الإمام الشافعي (ت:204هـ) «المنهاج» في الآية بـ«السنة النبوية» يريد بذلك «الطرق والخطوات والوسائل التي كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يسلكها لأداء مهامه النبوية والرسالية في تلاوة آيات الله على الناس، وتعليمهم ما أنزل عليه من ربه وتركيتهم وتركية المجتمع كله بآياته المحكمات، وبيان كيفية ممارسة ذلك -كله- في ظلال «شريعة الله» لتكون منهم «الأمة الوسط» و«الأمة القطب» و«الأمة الشاهدة والمشهود عليها» لتكون للبشرية نموذجًا دائمًا باعتبارها «أمة الشريعة والمنهاج». والإمام الشافعي إمام في اللغة مثل ما هو إمام في الفقه، وجامع مؤسس لعلم «أصول الفقه».

وعلى هذا فإن «نَهَجْ نَهَجًا» تعني: سلك طريقًا بغية الوصول إلى الغاية.. والمنهاجية يمكن أن نعتبرها: «علم بيان الطريق والوقوف على الخطوات.. أو الوسائل والوسائل التي يتحقق بها الوصول إلى الغاية، على أفضل وأكمل ما تقتضيه الأصول والأحوال». والطريق قد يطول، وقد تعثره العوارض، وتتعدد فيه المنازل، فما بين المنحنيات التي قد تخرج السالك عن سبيله،

وما بين المعارج التي قد ترتفع به لتفسح الآفاق، تكثر المزالق والمهلكات التي تتعثر إزاءها الخطوات، وعندها تكون «المنهجية» مصدرًا لابتناء الرشد، وبقدر ما تحيط به من علم الطريق، وبيان إمكان الوصول، وبقدر ما تدل على صحة منطلقاتها وسلامة وجهتها، يكون قيامها مقام المرشد الأمين الذي يبين معالم الطريق، والدليل الذي يعرف شيئًا عن كميّات ضبط المسار وفن بلوغ القصد، من خلال تحديد المراحل والتمييز بين المستويات والتحقّق من علامات الاستدلال عند المفارق وإدراك مراجع الاتصال بحيث يُمكن السالك من التزام جادة المسار ومعرفة مناكب الاستدراك، فالمتابعة واللحاق¹¹.

8. مفهوم العقل:

حقيقة العقل: لم يعن علماؤنا كثيرًا بالبحث في "حقيقة وأما الآخرون فقد كثر اختلافهم ونزاعهم في أمور لا طائل تحتها كالبحث في كون "العقل" ومعرفة ماهيته. وقد صرح إمام الحرمين الجويني (ت 478هـ / 108م) بذلك، وأوضح أن أبرز من أولى البحث في حقيقة العقل شيئًا من العناية - من أهل السنة - الحارث المحاسبي (ي 243هـ / 857م)¹². وأما الآخرون فقد كثر اختلافهم ونزاعهم في أمور لا طائل تحتها كالبحث في كون "العقل" عرضًا أو جوهرًا¹³. والجدل في العلاقة بينه وبين النفس والروح وغير ذلك، وأفضل من تناول الحديث في حقيقة العقل الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)¹⁴، فقط أوضح أن العقل يطلق على معان أربعة هي:

¹¹- "نحو إعادة بناء علوم الأمة" أ. د. طه جابر العلوانى. أ. د. منى أبو الفضل. ص 70/69 طبعة دار السلام 2009

¹²- أبو عبد الله الحارث بن أسد العنزي المحاسبي، ولد بالبصرة 165هـ، وتوفي 243هـ / 857م.

¹³- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: البرهان في أصول الفقه (تحقيق د. عبد العظيم محمود الديب)، القاهرة: دار الوفاء، 1992، ج1، ص 95،

¹⁴- أبو حامد الغزالي، معيار العلم، ط دار المعارف، القاهرة، 1961م.

الأول – الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، و به يكون الإنسان مستعداً لقبول العلوم النظرية، وتدبر الصناعات الخفية الفكرية. وهو الذي عرفه الحارث المحاسبي بأنه: "غريزة يتهياً بها الإنسان لإدراك العلوم النظرية"، (أي التي تحتاج إلى نظر وتفكير).

الثاني – العلوم الضرورية (البديهية) التي تظهر لدى الإنسان حين بلوغه سن التمييز، فيدرك جواز الجائزات العقلية، واستحالة المستحيلات ووجوب الواجبات.

فالإنسان السوي عندما يبدأ التمييز، ويدرك أن الكل أكبر من الجزء، وأن الواحد أقل من الاثنين، وأن الشخص الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين في آن واحد، وأن كل حدث لا بد له من محدث.

الثالث – مجموعة الخبرات والمعلومات التي يستفيدها الإنسان من التجارب، وملاحظة السنن والنواميس، ولذلك يقال للإنسان كثير التجارب: أنه عاقل، وقليل الخبرات: أنه غمر أو جاهل.

الرابع – ملكة الانضباط والسيطرة على النفس نتيجة العلم بعواقب الأمور وحقائق الأشياء، ونتائج الأعمال أو الأقوال، فيقال للقادر على السيطرة على نفسه وكبح جماح الضار من نوازه وشهوته، المتحكم بدواعي إقدامه وإحجامه: أنه إنسان عاقل.¹⁵

ففي الأول والثاني يظهر جانب الفطرة والموهبة وأصل الخلقة، وفي القسمين الثالث والرابع يظهر جانب الكسب. وقد نسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – عليه السلام – قوله:

مطبوع ومسموع

رأيت العقل عقليين

إذا لم يك مطبوع

ولا ينفع مسموع

¹⁵ - الغزالي، المرجع السابق، ص 13.

9. النظريات الفقهية:

النظرية كما ورد في المعجم الفلسفي هي قضية تثبت ببرهان، وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي، مؤلف من تصورات منسقة، تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ؛

■ فإذا أطلقت النظرية على ما يقابل الممارسة العملية في مجال الواقع دلت على المعرفة الخالية من الغرض، المتجردة من التطبيقات العملية.

■ وإذا أطلقت على ما يقابل العمل في المجال المعياري، دلت على ما يتقوم به معنى الحق المحض، أو الخبر المثالي المتميز عن الالتزامات التي يعترف بها جمهور الناس.

■ وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة العامة دلت على ما هو موضوع تصور منهجي منظم ومتناسق تابع في صورته لبعض المواضع العلمية التي يجهلها عامة الناس.

■ وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة اليقينية دلت على رأي أحد العلماء أو الفلاسفة في بعض المسائل الخلافية، مثال ذلك: نظرية " الخطأ " عند ديكارت.

■ وإذا أطلقت على ما يقابل الحقائق العلمية الجزئية دلت على تركيب عقلي واسع، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر، ويقبله أكثر العلماء في وقته من جهة ما هو فرضيه قريبة من الحقيقة، مثال ذلك: نظرية الذرة.

وقد دخلت مصطلح النظريات إلى مجال التداول في العلوم الإسلامية تأثراً بتداول ذلك في العلوم الاجتماعية والقانونية، ومن شرع في استعمال ذلك الأستاذ الراحل الدكتور السنهوري عبد الرزق _ أستاذ الحقوق في الجيل السابق _ وعنه وعن تلامذته والمتأثرين به شاع هذا الاستعمال.

فالنظريات الفقيه أشبهت النظريات المتداولة في العلوم الاجتماعية من بعض النواحي التي سوغت هذا الاستعمال فصرنا نسمع ونقرأ عن نظرية العقد والنظريات المالية وما إلى ذلك.

فاقتضى ذلك بيان هذه النظريات والتعريف بها. والله الموفق

10. مفهوم الفعل الإنساني:

والفعل الإنسانيّ عندنا هو أساس الابتلاء [لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] (هود:7)، وعليه تترتب نتائجه ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقيام الإنسان بالفعل يتوقف على أمور عديدة إضافة إلى الدواعي والدوافع والإرادة الإنسانية، فهو يتوقف على وسائل وأدوات وشروط تؤخذ من البيئة، وذلك إسهام الطبيعة بالفعل الإنسانيّ، فلولا أن الله جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وجعل من الماء كل شيء حي، وجعل السماء سقفا مرفوعا، والشمس والقمر دائمين وسخر الليل والنهار، أتى الإنسان من كل ما سأله ولولا أن الله تبارك وتعالى أخذ على الإنسان العهد واستخلفه في هذه الحياة وأمره ونهاه وائتمنه وحدّد له دوره، لما أمكن لهذا الإنسان أن يقوم بالفعل ويخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود، ومن هنا فإن الفعل الإنسانيّ حاصل جدل لا يتوقف وتفاعل لا ينقطع بين الغيب والإنسان والكون، فلا جبر ولا عبث ولا سدى ولا انتفاء للغاية ولا استبداد وإما هو ذلك التفاعل الذي أسس الله تبارك وتعالى له بين العناصر الثلاث، ولذلك أصبح الفعل الإنسانيّ أساس التوحيد وجوهر التركيبة ومنطلق العمران، فلا غرابة أن يحوطه الله تعالى وهو بهذه الأهمية بالهداية الربانية والتوجيه الإلهي، ويربطه بتلك، الجحافل الجرارة من الأنبياء والمرسلين عبر تاريخ البشرية ليستقيم وليؤتي ثماره ويحدث آثاره. وبذلك يكون الفقه الإنسانيّ بأنواعه كلها هو ذلك الفهم الإنسانيّ لحكم الشارع وهداياته سبحانه وتعالى، ولا بد من ملاحظة ذلك كلّ فيه.

وقد عرفه د. مصطفى النشار في مقال له على صفحات الإنترنت بعنوان "الإنسان هو ما يفعل" فقال:

الفعل الإنسانيّ هو الماهية الحقيقية للإنسان، التي يعبر بها عما يجول في خاطره من فكر أراد أن يطبقه في حياته. و الفعل الإنسانيّ فعل تعميري بناء، يصنع الإنسان من خلاله التقدم ويخلق من خلاله مجتمعات تتطور وتتجدد باستمرار. وبالتالي الفعل الإنسانيّ يترتب عليه تغيير البيئة من حوله وتسخيرها لخدمته ولتحقيق أغراضه وأهدافه.

11. مفهوم الأقلية والأكثرية:

عرفت الأقلية بأنها "جماعة من الأفراد الذين يتميزون عن بقية أفراد المجتمع عرقيا أو قوميا أو دينيا أو لغويا، وهم يعانون من نقص نسبي في القوة، ومن ثم يخضعون لبعض أنواع الاستعباد والاضطهاد والمعاملة التمييزية".

وهذا التعريف من الواضح أنه قد تأثر ببعض الحالات أو التجارب المعاصرة، وإذا أردنا أن نصوغ تعريفا ينسجم ومصادرنا وثقافتنا فنستطيع القول بأننا لم نستخدم هذا المفهوم عبر تاريخنا في الاستخدامات التي تداولتها العلوم الاجتماعية الحديثة، وبخاصة العلوم السياسية.

ذلك أن ثقافتنا لم تربط مفهومي الأقلية والأكثرية بالجانب العددي بل ربطت بالجانب القيمي فإذا لوحظ جانب العلم نجد القرآن المجيد يقول (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [الأعراف:187]، وذلك يعني أن أقلهم هم الذين يعلمون، وإذا لوحظ جانب الحق، نجد القرآن المجيد يقول [وَأِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ] (الأنعام:116)، وذلك يعني أن الأقل هم المهتدون الذين يؤيدون الهدى ويدعون إليه.

وبالتالي نستطيع أن نقول إن هذا المفهوم ينبغي أن نلاحظ فيه القيم والثقافة و الهوية، إضافة إلى الناحية العددية التي ينبغي أن يكون تأثيرها في هذا المجال ثانويا، وبناء على ما سبق يمكن أن نقول إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ميثاق المدينة لم يسم اليهود ولا المشركين أقلية، مع أن كلا منهما من الناحية العددية كان يمثل أقلية، ولكنه أطلق عليهم أمة، فجعل كل طرف من الأطراف الموقعة على عقد المدينة أمة لما يحمل لقب الأقلية والأكثرية من تحيزات.

وعلى هذا فالأقلية والأكثرية مجموعة بشرية تحمل بعض الخصائص التي تتصل وتنفصل بخصائص المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، فهي تنفرد ببعض المقومات الثقافية وبعض عناصر الهوية والجذور التاريخية وقد تتميز بلون أو عرف أو ما إلى ذلك، مما يجعل من كل

تلك الفوارق عناصر يمكن أن تشكل إضافة للمحيط الاجتماعي الذي تحيا فيه، ويمكن أن تكون مصدرا لتخوف الأثريّة إذا لم تتمتع بالانفتاح الإنسانيّ الكافي.

لا شك أن الديمقراطيات الحديثة أعطت للعدد بحكم انضباطه أهميته خاصّة، قد تنفع وقد تضر بالأقليّة، ولكن الأقليّة في الوقت نفسه تستطيع أن تجد فيما يمكن أن تضيفه إلى المحيط المشترك من مزايا ما يجعلها موضع تقدير المحيط كله، وهذا ما يحرص الإسلام على أن يتحلى المسلمون به في جميع الأماكن التي يعيشون فيها. والله الموفق

مدرسة الرأي ومدرسة الحديث

ظهرت مدرسة الحديث أول ما ظهرت في الحجاز، واتخذت مدينة رسول الله موطنها لها، حتى باتت تسمى " مدرسة المدينة " وكان يرأس هذه المدرسة الإمام مالك _رضي الله عنه_ وكان واضع الحجر الأساسي لها عبد الله بن عمر، ثم ساهم برفع هذا الأساس من أتى بعد ذلك من التابعين، كسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم محمد وغيرهم، ثم تضافرت العوامل والأسباب على ارتفاع بناءها وتميزها.

وأهم هذه الأسباب والعوامل:

أولاً: وفرة ما بأيدي أهل المدينة من الأحاديث والآثار، وفتاوى الصحابة رضوان الله عليهم.
ثانياً: تأثرهم بطريقة شيوخهم، كعبد الله بن عمر، من تمسكهم في فتاواهم بالآثار، وكرهاتهم الاعتماد على الرأي.
ثالثاً: عدم اتساع مظاهر الحضارة عندهم، وقربهم من حياة البداوة، مع كراهية السؤال عما لم يحدث.

خصائص مدرسة الحديث

لقد كان لمدرسة الحديث هذه خصائص يحملها فيما يلي:
أولاً: اتجاه فقهاء هذه المدرسة إلى حفظ أحاديث النبي _صلى الله عليه وآله وسلم_ وفتاوى الصحابة، ووقوفهم في الفتوى على الرواية غالباً.
ثانياً: صحة ما يروونه من الحديث، لاستيثاقهم منها، وبلغ بهم الاعتماد على حجّة أحاديثهم أنّهم لا يقبلون أحاديث غيرهم إذا انفرد رواتها دون أن يكون لها مؤيد من رواتهم.

ولقد كانت المدينة بحق موئلا لحديث رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فكان العلماء يرحلون إليها في طلب الحديث.

ثالثا: وقوفهم عند ظواهر النصوص، من غير بحث عن عللها في الأعم الأغلب، ومن هنا قال سعيد بن المسيب لربيعه الرأي في سؤاله عن الحكمة، عندما سأله عن عقل أصابع المرأة. ما عقل الإصبع الواحدة؟ قال: عشرة من الإبل، قال: فأصبعان؟ قال: عشرون، قال: فثلاثة؟ قال: ثلاثون، قال: فأربع؟ قال عشرون، قال: فعندما عظم جرحها نقص عقلها؟! فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ إنما هي السنة.

ومن هنا قال الإمام الرازي: " فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد أصحاب الرأي سؤالا أو إشكالا، بقوا في أيديهم متحيرين " (مناقب الشافعي للرازي _21).

رابعا: قلة تفريعهم الفروع، وكرهيتهم السؤال عن المسائل التي لم تقع بعد.

مدرسة الرأي وعوامل وجودها

لم يدع أحد أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد نصا على كل مسألة من المسائل الجزئية، مما كان ومما سيكون، ولكنهما قد حويا أصولا كلية، يمكن استخراج المسائل الجزئية على ضوءها.

فكان لا بد من وجود شيء آخر يرجع إليه الفقهاء عند طرؤ هذه المسائل، هذا الشيء الآخر هو الرأي والاجتهاد.

لقد كان بدء ظهور بذرة الرأي في عهد الصحابة، فكان منهم من يستعمل الرأي والاجتهاد حيث لا نص.

وكان حامل لواء الرأي والاجتهاد عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ وكان من أبرز تلاميذه في الرأي عبد الله بن مسعود الذي قام بتأسيس مدرسة الرأي في الكوفة، منذ أن أرسله عمر إليها معلماً، وقد كتب لهم " إني بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم_ من أهل بدر، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتمكم بعبد الله على نفسي ".

ثم نمت هذه البذرة عندما انتقل ابن مسعود إلى العراق في عهد علي بن أبي طالب _ كرم الله وجهه_ جملة من الصحابة رضوان الله عليهم.

هذا وقد أرجع الباحثون وجود مدرسة الرأي ونموها وترعرعها إلى أسباب وعوامل نجملها فيما يلي:

أولاً: تأثرهم بمؤسس هذه المدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، الذي كان يعتمد كثيراً على الرأي والاجتهاد في فتاواه.

ثانياً: قلة الحديث في العراق. قال بن خلدون في مقدمته: " وكان الحديث قليلاً في أهل العراق لما قدمناه، فاستكثروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل أهل الرأي. وكان قد قال قبل: هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأنّ المدينة دار الهجرة، ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر، والإمام أبو حنيفة إنّما قلت روايته للحديث لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي، لا أنّه ترك رواية الحديث متعمداً، فحاشاه من ذلك، ويدل على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً ".

ثالثا: كثرة المسائل التي يحتاج إلى معرفة أحكامها، إذ إن بيئة العراق تختلف كليًا عن بيئة الحجاز، لأنّ دولة الفرس قد دخلت في العراق أنواعا من المعاملات والعادات والنظم مما لا يعهد مثله في الحجاز.

رابعاً: شيوع وضع الحديث، فلقد كان هذا أيضاً مدعاة إلى التوقف عن الأخذ بالحديث، ولزوم أعمال الرأي.

خصائص مدرسة الرأي:

تميزت مدرسة الرأي عن مدرسة الحديث بخصائص يحملها فيما يلي:

أولاً: كثرة تفريعهم الفروع حتى الخالي منها.

ثانياً: قلة روايتهم للحديث بسبب اشتراطهم فيه شروطاً لا يسلم معها إلا القليل، ولقد غالى بعض منهم، فرأى عدم الأخذ بالحديث مطلقاً.

ثالثاً: عنايتهم بالبحث عن العلل والمقاصد في الفقه و التشريع، وعن معقولية كل حكم من الأحكام، ومن هنا كان سؤال ربيعة الرأي لسعيد بن المسيب الذي مر ذكره، وقال ربيعة عندما قال سعيد أعراقيّ أنت؟ قال: بل عالم متثبت، أو جاهل متعلم.

هذا، وقد تبيّن من خلال ما عرضناه من خصائص مدرسة الحديث ومدرسة الرأي أن أهل الرأي أمعنوا النظر في مقاصد الشريعة، وفي الأسس التي بني التشريع عليها، فتبيّن لهم أن الأحكام الشرعيّة معقولة المعنى، ومقصود بها مصلحة الناس، وأنها بنيت على علة ضابطة، فكانوا يستحثون عقولهم بحثاً عن تلك العلة التي شرعت الأحكام على وفقها، ويجعلون الحكم دائراً عليها وجوداً وعدمًا.

بينما نرى أهل الحديث قد عنوا بحفظ الحديث وفتاوى الصحبة، واتجهوا في فقههم إلى فهم الآثار حسبما تدل عليه عباراتها، ولا يلجئون إلى استعمال الرأي إلا عند اشتداد الحاجة إلى ذلك.¹⁶

هذا ما جرى تداوله لفترات طويلة في كتب الفقه والفقهاء والمذاهب، وقد أهمل من أهمل ذكر أسباب هامه جدا، أدت إلى هذا الانقسام، الذي يكاد يكون طبيعياً من ناحية، لأنه بدء في عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قصة بني قريظة المذكورة¹⁷.

فحين يخاطب البشر بنص؛ فإن هناك من ينشغل ذهنه بالبحث عن حكمة النص وعلته ومقاصده، وبعضهم يقتصر على ظاهر لفظه وما تفيده حروفه. وهذا العامل قد أشير إليه من مؤرخين عديدين. لكن هناك عاملاً آخر، وهو أن هناك مقولات خاطئة بنيت عليها تصورات خاطئة أيضاً، هذه المقولات منها؛ " أن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية " وبالتالي فلا بد من اشتقاق أدلة عقلية وغيرها ملئ الفراغ التشريعي القائم على ذلك التصور الخاطيء، وكذلك المقولة التي نسبت إلى الإمام علي - كرم الله وجهه - ولا تصح عنه " أن القرآن حمال أوجه " وبالتالي فلا بد من اللجوء إلى أدلة أخرى. ومنها التوسع بالمرويات لسد ذلك الفراغ، وابتكار واشتقاق أدله أخرى، فجاءت فكرة الإجماع والقياس، ثم الأدلة المختلف فيها.

¹⁶ - انظر "دراسات تاريخية للفقه وأصوله" لد. مصطفى الخن. ص 76-93 بتصرف

¹⁷ - عن ابن عمر: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نادي فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأبطأ الناس فتحوفوا فوث وقت الصلاة فصلوا وقال آخرون لا نصل إلا حيث أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن فاتنا الوقت فما عنف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحدا من الفريقين (ابن جرير) [كنز العمال 30095]

أخرجه أيضاً: البخاري (321/1 ، رقم 904) ، ومسلم (1391/3 ، رقم 1770) ، وابن حبان (320/4 ، رقم 1462)

(كتاب جامع الأحاديث، جلال الدين السيوطي، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب) (على عهدة المكتبة الشاملة الإصدار الثالث)

والحق أن كتاب الله تبارك وتعالى كاف بسد الحاجة التشريعية على سبيل الإنشاء قديماً وحديثاً، " أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "18 .

فالقُرآن الكريم بكلّياته وعموماته ومقاصده وغاياته، كاف تماماً عند حسن تدبّره والاعتماد عليه وتثويره لسد هذه الحاجة، وهدى رسول الله _صلى الله عليه وآله وسلم_ في تفعيله متمم ومقدم للمنهج المطلوب في تفعيل آيات الكتاب في الواقع، وضبط مسيرة الواقع به. وهذا ما سنتناوله إن شاء الله عندما نأتي إلى بيان وتفصيل ما يتعلق ببنية فقه الأقليات.¹⁹

18 - سورة (العنكبوت: 51)

انظر "نحو إعادة بناء علوم الأمة" أ.د. طه جابر العلوانى ود. منى أبو الفضل . _ مقدمة الرأي لابن خلدون _ تاريخ التشريع¹⁹ للخضري _ تاريخ التشريع الإسلامي لد. عبد الجواد خلف .